

## في جوف الليل

للساغر المندي الفيلسوف " طاغور"  
بقلم السيد مجري شهاب العتيبات

أن اشتدت على وطأته وقرب ما بيني  
وبين الموت، فاسترجعت صحتي كاملة في  
شهر أو بعض شهر ...

« وكانت زوجتي - خلال ذلك -  
لا تعرف للراحة معنى في لحظة من  
لحظات الليل أو النهار ، حتى لكأنها

كانت تدافع رسل الموت عن الاقتراب من الباب !  
ودام ذلك منها لا تطعم شيئاً ولا تأخذها سنة من  
الكرى ، ولا تفكر في شيء - سواي

« وكان الموت كنمر خدع عن فريسته استلت  
من بين فكيه فقيبت عنه .. فلما غلب هذا القلب ،  
أصاب زوجتي بضربة قوية من برائته ، فاذا هي بعد  
قليل تضع طفلاً ميتاً ، وإذا دور عنايتي بها قد حل »  
قال : « ولكن ذلك كان يسوؤها ، فتصرخ قائلة :  
— « إبتعدوا بضوضائكم عن غرفتي هذه  
ابتغاء مرضات الله ... »

« .. كان يزعمها كل شيء ؛ فلو ذهبت إلى  
غرفتها في الليل وقد اشتدت عليها الحمى فأحرك المروحة  
لأروحها وكأنني أروح نفسي بها ، تنبه منزعجة ..  
« ولو أخرت موعد طعامي من أجلها يكون ذلك  
مدعاة لتوسلات واستعطافات ترفضها إلى .. »

« ... ولو ذهبت لأقدم لها أبسط ما أستطيع  
من أمر خدمتها ، جزاء ما صنعت بي ، يكون لذلك  
في نفسها أسوأ الوقع ، فتصرخ قائلة :

« ليس للرجل أن يضح كل هذا الضجيج ! »  
« أنظرك رأيت حديقة داري حيث ينسبط  
أماءها نهر الكنج ... وهناك في ناحية الشمال كانت  
تقوم غرفة نومها ومن حولها حديقة اتخذتها لنفسها  
تكنفها أشجار الحناء ؛ وقد كانت تلك البقعة من  
الحديقة هي البقعة البسيطة المتواضعة ، إذ لم تكن  
تري في أصل الورود تلك الأسماء اللاتينية الطويلة

« دكتور ... دكتور »

استيقظت من نومي العميق في جوف الليل فزعاً  
مذعوراً ، فاذا أميرنا « دوخين بابو » ... فقدمت  
له كرسيًا بالياً أجالسته عليه ، ونظرت إلى وجهه في  
شيء من القلق والاهتمام ... ثم ألقيت على الساعة  
نظرة فاذا هي قد جاوزت منتصف الثالثة صباحاً .  
قال « دوخين بابو » وقد علا وجهه شحوب  
ظاهر ، واتسعت عيناه :

— « إن أعراض المرض قد عادت إلي ،  
ودواؤك ذلك لم يقدني في قليل ولا كثير »  
فأجبتني في استحياء :

— « أخشى أن تكون عدت إلى الشرب  
مرة أخرى »  
فقال وقد بدا غضبه :

— « لقد أخطأت خطأ فاحشاً ... فليس هو  
الشراب ... بل عليك أن تسمع القصة كاملة لتفهم  
الأسباب الحقيقية »

وأدبرت السراج الذي كان يتقد في المشكاة  
شاحباً باهتاً فازداد ضوءه قليلاً وتعالى منه الدخان ؛  
ثم أسبلت رداً على كتفي وجلست على صندوق  
أستمع قصة « دوخين بابو »  
قال :

— « من نحو أربع سنين تمضت أصبت بمرض  
خطير كاد أن يودي بحياتي ؛ ثم أبلت من مرضي بعد  
(\*) من كتاب « من روائع طاغور » الذي سيصدر قريباً

في غيابها يصبح مبتذلاً تافهاً عندما أكون في حضرتها !!

« ... إنك لتستطيع أن تمضي في الكلام حين تخالف في الرأي ؛ ولكن « الضحكة » لا تفرع بالحجة ولا تقابل بالبرهان ؛ وذلك ما يجملني أفق بين يديها لا أنبس بشيء ! »

قال : « ثم ازداد ضوء القمر إشراقاً ، وصاح طائر من طيور « الككو » طويلاً حتى ظن أنه مأخوذ أو أسابه مس من الجنون ؛ فمجبت وأنا في مكاني هادي لا أبدي حراكاً ؛ كيف أتق « عروس الككو » في مثل هذه الليلة قليلة الاهتمام كذلك ؟ » قال : « وبعد أن لم تغد أنواع الأدوية زوجتي اقترح علينا الطبيب أن نبدل الهواء فأخذتها إلى « الله آباد »

وعند هذا الحد من الكلام توقف « دوخين بابو » فجاء وظل سامتاً ، ثم غص وجهي بنظرة أجالها فيه وبدأ يحيل الفكر ، وقد أتى رأسه على يده ، فبقيت أنا الآخر كذلك سامتاً

وارتجف لذب الصباح في الشكاة .. وارتفع في جوف الغرفة طنين البعوض واضحاً ؛ ثم إذا « دوخين بابو » يباغتني بتبديد شمل السكون راجعاً إلى قصته ، فقال : « عالج الدكتور « هاران » زوجي طويلاً ثم علمت — من بعد ذلك — أن هذا المرض لا شفاء منه ، وأنه قد كتب على زوجتي المسكينة أن تتحمل ذلك حتى نهاية حياتها ! »

« عندئذ قالت زوجتي : « إذا كان مرضي هذا لا يشفي ، وليس نمة أمل بموتى قريباً ، فلم تقضي أيامك مع هذا الميت الحي ؟ أتركني وارجع إلى أعمالك » قال : « وكان دور ضحكي منها قد حلّ لولا أنني لا أقوى على « الفهقة » مثلها فأجبتها في حشمة يتطلبها موقعي ، مؤكداً أقول :

— ما دام في جسمي حياة ...

معلقة على أوتار الخشب كأعلام مزروقة خافقة ؛ بل كانت أنواع الياسمين وزهور الليمون والورد هي التي تسود المكان

« وكانت تحت شجرة من أشجار « البُكل » رخامة بيضاء اتخذتها زوجي مفسلاً تنفسل فيه مرة أو مرتين في النهار يوم كانت لها صحتها ونشاطها . وكانت هذه الرخامة أيضاً مجلسها في أمسيات الصيف حين ينتهي عملها ، تطل منه على النهر فتري الغادين والرائحين فيه دون أن يشعروا بوجودها !

« وفي ليلة مقمرة من ليالي نيسان ( أبريل ) أبدت زوجتي رغبة في الخروج إلى رختها تلك بعد رقاد دام أياماً في سرير المرض ، لتستبدل بجو غرفتها الخائف جولة في حديقة هذه ... فحملتها في عناية كبيرة ووضعها تحت الشجرة حيث تساقطت عليها بعض زهورها ، وأطل القمر من بين فروع الأشجار « وقد كان السكون يشمل كل ما حولنا ، فلما نظرتُ إلي وجهها — وقد كانت إلى جانبي تحت الظلال القاتمة — واستنشيتُ عبير الزهور ، ترقرقت عيناي بالدموع ، فدنوت منها وأخذت إحدى يديها النضرة الحارة بين يدي فلم تمنعني ، ثم بعد أن جلست كذلك هادئاً بدأ قلبي يخفق خفقاناً شديداً ؛ فقلت لها :

« لن أستطيع يوماً أن أنسى هذا الحب ! » ضحكك زوجتي على أثر هذا ضحكة كان فيها بعض معاني الفرح والسرور ، وكان فيها بعض معاني الشك والارتباب ، وكان فيها أثر من التهمك الريا « لم تقل ما يدل على أنها أجابت جواباً بيناً ، ولكن ضحكها تلك التي أرسلتها كان من جملة معانيها أن ماقلت ليس مقبولا مستساغاً ، بل ولا هي ترضاه ! » ... لم يكن عندي من الشجاعة ما يمكنني من أن أحب زوجي حباً مجرداً عن الخوف من ضحكها الحادة تلك ؛ فكل ما أصطنع لها من الأحاديث

« إن هؤلاء الذين لا أمل في شفائهم يكون لهم الموت عتقاً ... فهم ما داموا على قيد الحياة يقلقون أنفسهم ويشقون الآخرين ! » وهو قول مسموح به في « الأحوال الاعتيادية » فأما أن يقال هذا وزوجتي على حالتها تلك فشئ لا يستساغ ولا يجوز أن يذكر أبداً ؛ ولكنني كنت أقترض في الأطباء قسوة القلب في مثل هذه الظروف فلا يبالون ما يقولون . »

قال : « وكنت يوماً جالساً بالقرب من إحدى المقاصير إذ سمعت زوجتي تقول بفتة : يادكتور ! لم أراك جادا في إعطائي هذه الأدوية التي لا طائل فيها ؟ إن حياتي حين تكون مرصداً دائماً يكون من الخير أن تفكر في قتل بدلاً من معالجتى ؟ » ثم سمعت الدكتور يقول لها : « عليك ألا تتحدثي بمثل هذا الحديث ! » . . . ومتى انصرف الطبيب ذهبت إلى غرفتها وألقيت بنفسى إلى جانبها، فقالت وهي تضرب ناصيتها بلطف : « إن هذه الغرفة حارة ، فاذهب إلى ثرثرتك المعتادة ، إذ لولا عنايتك بي في كل مساء لعقدت شبهة المشاء »

« وزهرتى المعتادة هذه معناها الذهاب إلى دار الدكتور « هاران » . وقد كنت — أنا — الذى قلت إن بعض التمارين البسيطة ضرورية للصحة والشبهة لتناول الطعام ؛ وأنا الآن جيد وائق من أنها كانت تنغاضى عن ذلك !

« . وقد كنت بليداً حقاً ، إذ ظننت مطعماً إلى أنها كانت يومئذ غافلة عن هذا الخداع . » وهنا توقف « دوخين بابو » عن الكلام واعتمد برأسه على يديه وظل كذلك صامتاً برهة من الزمن ؛ ثم إنه قال : « أعطيتى كوبية ماء » فناولته وشرب ثم استأنف الحديث .

قال : « وفي يوم من الأيام أبدت « مونوراما » ابنة الدكتور رغبة في رؤية زوجتي ، وما كان ذلك

فقاطعتنى قائلة : « كففاك .. كففاك .. لست في حاجة إلى أن تقول أكثر من هذا ، لأن سماعى إياك تقولها يمت في نفسى الثورة .. وبحسب إليها ترك الحبال ! » ... لست أدري أصارحت نفسى بهذا الذى أقول أم لم أصارحها به حينذاك ، ولكننى أعلم الآن علم اليقين أنى كنت سبباً من العناية بذلك الليل الذى لم يكن في شفائه رجاء

« ومن الواضح أن تكون اكتشفت ملهى الخفى بالرغم من خدمتى لها ... »

« ... ما كنت أدرك يوم ذاك أنها كانت تستطيع أن تقرأنى كما يقرأ الصغار كتب « قراءاتهم الأولية » الخالية من معقد الكلمات ... ولكننى الآن لا يزالنى الشك في ذلك »

قال : « وكان الدكتور « هاران » من طائفتى التى أنتسب إليها ، وكانت لى في داره دعوة دائمة ليس لها انقطاع ... وبعد بضعة زيارات قدمنى إلى ابنته « لم تكن ابنته متزوجة ، مع أنها كانت قد تجاوزت الخامسة عشرة ، وقد اعتذر عن هذا التأخر أبوها بدعوى أنه لم يجد من يزوجه إياه من أبناء طائفته ؛ على أن الشائمة تقول إن سبب تأخرها هو مولدها الموصوم بالعار !

« ولم تكن لها غلطة غير تلك ، وذلك ما جعلنى أحدث إليها في شتى الموضوعات وأبحث وإياها ألواناً من الأسئلة والأحاديث إلى ساعة متأخرة من الليل قبل عودتى إلى الدار حيث كان يجب على أن أقدم الدواء لزوجتي في الوقت المعين له .. ولم يكن ليخفى على زوجتي أنى كنت في دار الدكتور « هاران » ولكنها ما كانت تسألنى مطافاً عن سبب ذلك التأخر الطويل « ... كانت غرفة المريضة تراءى لى موحشة مرعبة فكنت لداً أتأفل عن العناية بزوجتي وأتناسى غالباً مواعيد دوائها .

« ... وكان الطبيب قد اعتاد أن يقول لى أحياناً

« دخلت مونوراما » الغرفة وبدأت تسكلم زوجتي قليلاً ، وأنها كذلك إذ جاء الدكتور بمود مريضته .. وكان قد جاء من الصيدلية معه زجاجتين من الدواء . فأخرجهما قائلاً لزوجتي :

— أنظري ! هذه للقينة الزرقاء للعلاج الخارجي ، وتلك للعلاج الداخلي . وكوني شديدة الحذر من أن تخلطى بين الاثنين فإن هذا سم زعاف ! « ثم نهى أنا أيضاً ووضع الزجاجتين على المنضدة إلى جانبها ، فلما أراد أن ينصرف نادى ابنته لتذهب معه ، ولكنها أجابته قائلة :

— لم لا أتقى يا أبى وليس هنا من يعرضها ؟ فتحركت شجون زوجتي عند ما سمعت منها ذلك وأجابها تقول :

— لا تزجى نفسك فإن عندى خادمة عجوزاً تعنى بى كائى .

قال : « وإن الطبيب لنصرف مع ابنته إذ نادته زوجتي قائلة :

— دكتور .. لقد طال جلوسه فى هذه الغرفة الضيقة الملائى بالأناث . أفلا تأخذه إلى الهواء الطلق ؟ فالتفت الدكتور نحوى وقال مخاطبني :

— سأأخذك إلى زهرة على ضافة النهر ، وبعد تردد وامتناع نزلت على طلبه .

.. ثم انصرفنا ، وكان الدكتور قد نبه زوجتي مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الزجاجتين قبيل خروجهما « ... تناولت طعامي ليلئذ فى دار الدكتور ؛ ثم رجعت إلى الدار متأخراً فإذا بى أرى زوجتي قد انتابها ألم شديد فسألتها :

— هل اشتد بك الألم ؟

« ... ولكنها لم تكن تقوى على الجواب فاكثفت بأن نظرت فى وجهي . وقد رأيت — حينذاك — أنفاسها تتردد فى صدرها بعشقة وجهه شديد ، فأرسلت فى طلب الدكتور ..

ليرضيني تماماً . ولكن لم يكن لى عذر فى الرفض ، ولذلك جاءت إلي دارنا فى المساء

« كان مرض زوجتي يومئذ قد تعاظم وجاوز المعتاد ، وكان من عاداتها إذا اشتد بها المرض أن تضطجع سائمة هادئة أو تقبض أصابعها علامة ما تقاسيه من ألم النزع ...

« كنت جالساً بجانبها ، وكان يسود ما حولنا السكون ، ولم تكن قد التفت منى أن أغادرها ، إما لأن قوى الكلام فيها كانت قد خارت إلى هذا الحد ، أو لأنها كانت تستشعر الراحة فى بقاءى بجانبها أثناء نزعهما المؤلم الشديد !

وكان مصباح النفط قد وضع بقرب الباب خشية أن يؤذى عينيها ، فكانت الغرفة يسودها الظلام والسكون ولم يكن يسمع فيها غير حسرة تفرج بها كربها حين تخف عنها وطأة المرض لحظة أو بعض لحظة . «

قال : « وفى عين هذا الوقت كان يحىء « مونوراما » ووقوفها بالباب ، فكان الضوء ينعكس على وجهها فيجلوه واضحاً فالتفتت زوجتي وقبضت على يدي قائلة : — « أوكى ؟<sup>(١)</sup> »

« وفى هذه الحال ، كان يفزعها أن ترى شخصاً غريباً يقف بجانبها ، فإذا هى تتسأل بهمسات تقول : « أوكى ؟ أوكى ؟ ! » فأجبتها فى أول الأمر : لست أدري ! ولكنى شعرت فى اللحظة التالية كأن شخصاً ألهب بدنى بالسياط فتداركت قائلاً : ألا تعلمين بأنها ابنة الدكتور ؟ فاستدارت إلى رنفتنى بنظرة لم أقوم بها على أن أحقق فى وجهها ، ثم التفتت إلى القادم الجديد قائلة بصوت ضعيف : — أدخل .. ثم قالت لى : حىء بالمصباح ..

(١) كلمة بنغالية معناها : ( من هذه ؟ )

« ... كنت بعد زواجى من 'مونوراما' كلما حدثتها فى شىء مسترسلاً معها فى الحديث رمقتى بنظرة رزينة قوية حتى ليخيل إلى أن فى ذهنها عنى بعض آثار الشك التى ما كنت أقدر على أن أفهمها عاماً !

« وفى ذلك الوقت عينه .. بدأ هيامى بالشراب ! » قال : « وفى أمسية من أمسيات الحريف الباكركنت أنجول مع « نوراما » فى بستاننا على ضفة النهر ، وكان الظلام حولنا يشمرنا أنا فى عالم خيالى ؛ والهدوء لا يمكره شىء حتى ولا انتفاض أجنحة الطيور المستفرقة فى نومها العميق ، بل لم يكن على جهتي المشى الذى كنا نسير عليه غير ذوائب السنديان الأسترالى يحركها النسيم .

« وشمرت « مونوراما » بالتعب استولى عليها فاضطجعت على تلك الرخامة البيضاء متوسدة يديها وجالست — أنا — بجانبها فكان يحيل إلى أن الظلام الشامل قد تكاثف بمضه مع بعض حتى بدت رقعة السماء التى كنت أحرق فيها مكتظة بالنجوم وكان صرير بعض الحشرات تحت الأشجار يشبه تموج صوت رقيق فى طرف الصمت السفلى .. »

قال : « وكنت ليلئذ قد شربت قليلاً فكان قلبي كان رقيقاً ، سربع التأثر ؛ فلما نظرت إلى « مونوراما » فى ثوبها الفضفاض ولونها الشاحب وكانت عيناي تمودتا برؤية الظلام — أبقظ ذلك الذى رأيت فى شوق لا يستطيع لسانى التعبير عنه . » قال : « وتبدت أطراف الأشجار بفتة فى مثل هيئة الحريق تعلوها حافة البدر ملونة بلون غلات الحصاد مشرقة النور تساقط الضوء على ثوب المضطجعة الأبيض ، فما كان لى أن أملك نفسى بعد ذلك . فاقتربت منها وأخذت يدها بين يدي وقالت لها : — « مونوراما ! وربما كنت لا تصدقين ...

« وما كان الطبيب ليفهم سر هذا الألم أولاً ولكنه سألها :

— هل ازداد الألم عن قبل ؟ هل استعمت ذلك الدمان ؟

قال ذلك وتناول الزجاجاة الزرقاء من مكانها على المنضدة فوجدما خالية !

... فسألها الطبيب فى ثورة وحنق ظاهرين :

— أو أخذت هذا العلاج خطأ ؟ هل فعلت ؟

فأومأت برأسها إشارة الإيجاب !

« ... فأما الطبيب فقد ركض ليحضر جهازاً

خاصاً يستخرج به السم المستقر فى معدتها وأما أنا .. فقد سقطت كمن فقد الوعي ..

قال : « وكما تحاول الأم الحنون أن تهدئ عن طفلها وطأة المرض فكذلك أراحت زوجى رأسى على صدرها ، ولبسات أصابعها كانت تريد أن تبثنى ما كان فى نفسها من الأفكار !

« .. كانت بتلك اللسعات الخفيفة توحى إلى بالصبر ، وتنبئني بخير تؤول إليه الأمور ، وتمزني عن نفسها بأنها ستموت مرتاحة سعيدة ، وذلك ما سيجملى سعيداً أنا أيضاً ..

« .. ورجع الطبيب بآلته ولكن الآلام البرحة كانت قد أودت بحياتها ... »

ثم تناول جرعة من الماء ؛ وقال :

« ياله من حر شديد ! » ثم مشى إلى الشرفة ورجع ثم استدار إليها ثم عاد منها .. كمن يريد أن يهرب من الحرف يستعصي عليه .. ثم جلس واستأنف حديثه من جديد .

وتبينت منه أنه لم يرد أن يظلمنى على الطرف الأخير من القصة ولكن قوة خفية ساحرة منى سيطرت عليه فاجتذبت البقية منه اجتذاباً ، فقال :-

ولكنى ... لن أستطيع يوماً أن أنسى مهبك هذا !  
« وفي اللحظة التي بدأت بها هذا الكلام  
تذكرت أنى كنت قد قلت مثل هذا الشخص آخر  
« وفي عين هذا الوقت جاء الصوت من بين ذوائب  
الشجر والبدر المنير ، ومن وراء ضفة الكنج البعيدة  
— « هاها .. هاها ... هاها ! »

« رنة قهقهة تطوى الجوطيا ...  
« لست أستطيع أن أقول أ كانت ضحكة قلب  
محزون ، أم نوحاً شق عنان الفضاء ، ولكنى عند  
سماعها سقطت مغمى على

فلما أفتت وجدت نفسى فى غرفتى مضطجماً  
على الفراش . فسألتنى زوجتى قائلة : « ماذا حل  
بك ؟ » فأجبتها فى شئ من الاضطراب والفرع :  
« ألم تسمعى رنين القهقهة فى السماء ؟ ! — هاها —  
هاها — هاها ؟ » . فتبسمت زوجتى قائلة :

— « قهقهة ؟ أين هذه القهقهة ؟ إن ماسمته كان  
أصوات طيور تطير ... إنك اسرّبع الفرع جداً ! »  
« وعلمت فى اليوم التالى أن ما سمعت كان  
ضجيج سرب من الطير اعتادت أن تهجر فى مثل  
هذا الفصل من كل عام إلى الجنوب ... ثم لما أمسى  
المساء رجعت إلى وسادسى تارة أخرى ، فخيل لى  
أن السماء ترن بقهقهة عالية تمزق جلباب السكون  
لأقل داع ... وكان من ذلك أنى لم أستطع أن أكرم  
« مونوراما » بكلمة واحدة عند ما تخيم جيوش  
الظلام ...

« وقررت أن أهجر حديقتى إلى رحلة فى  
النهر مصطحباً مى « مونوراما » وأزالت رياح  
(نوفبر) القارسة كل مخاوفى فلبثت أياماً معتبطاً  
سميداً ، ثم غادرنا « الكنج » مجتازين نهر « خورى »

حتى وصلنا إلى « بادما »<sup>(١)</sup>  
« ... كان هذا النهر ممتدأ فى البطاح كشمبان  
مستغرق فى ردة شتوية عميقة ، وكانت فى ناحية  
الشمال منه تترامى شواطئ الرمل القاحلة الوحيدة  
متقدة فى وهج الشمس ؛ وفى ناحيته تقوم أحراج  
المعبة (المانجو) كأنها فى امتدادها واقعة فى انفراج قم  
ذلك النهر المجنون الذى كان بين الغينة والغينة يتقلب  
فى نومته على أرض الشواطئ المفطرة فيملاشقة وقها  
بجحرير ولد<sup>(٢)</sup> ظاهرين  
« فلما وجدنا مكاناً مناسباً رسوت بالقارب  
على الشاطئ »

قال : « وسرنا فأوغائنا فى السير مبتعدين عن  
القارب ، وكان الشفق الذهبي يتضام شيئاً فشيئاً  
فبرزت السماء طافحة بنور البدر الفضى ، فشمرت  
وقد كان ذلك النور يملأ الفضاء الرحيب الفسيح  
ويتساقط على الرمال البيضاء بفيضه المتألق —  
شمرت كأننا نحن الاثنان منفردان نتجول فى عالم  
الخيال على غير قصد .

« كانت « مونوراما » ترتدى ليلتد شالا أحمر  
سبلته على رأسها وكتفها مبدية وجهها فقط ،  
فأخذت بدى بين يديها وقد اشتد الهدوء حتى  
صار جلالاً لا يكره شئ .  
فقلت لنفسى فى اشتياق :

— أحقاً أن فى العالم مجالاً يتسع فى غير هذا  
الفضاء الرحب تحت السماء لقلبين عرفا الحب جديداً ؟  
« ثم خيل لى أن ايس عندنا دار ناوى  
إليها ، فتمضى سائرنا كذلك ممسكين يداً بيد ،  
متحدرين من كل الموائى والتقاليد فى هذه الطابق

(١) أسماء أنهار فى جهة الشمال الشرق من الهند والمشهدور

منها الأول والأخير

(٢) الدم : صوت وقوع النوى ، وهو المعنى المتألق  
للكلمة الانجليزية Thud

التي لانعرف نهايتها تحت البدر

« ووصلنا بعد التطواف إلى بركة ماء نكتنفها  
رُبى المال من أطرافها، وكانت أشمة القمر تحترق  
« قلب البركة » كسيف وامض، فوقفنا هناك صامتين  
ونظرت « موتوراما » في وجهي متطلعة. وكان الشال  
قد انحسر عن رأسي فأنحيت عليه؛ وقبّلها وإذا ذاك  
جاء من حيث لا أعرف خلال ذلك الصمت في تلك  
الصحراء النائية صوت يقول ثلاثاً في نعمة هادئة مهيبة.  
— أوكي؟ أوكي؟ أوكي؟

« فتراجعت إلى الوراء. وفزعت لذلك زوجي »  
قال : « وفي اللحظة التالية تأكدت — أنا  
وزوجتي — من أن الصوت لم يكن صوت بشر  
ولا ملاك، بل كان صوت طير ذعر من مجيء  
القادمين في هذه الساعة المتأخرة من الليل !  
» ثم تاب إلينا رشدنا فرجعنا إلى القارب  
بأسرع ما استطعنا وآدبنا إلى المضاجع، وسرعان  
ما استولى الرقاد على « موتوراما » قال : « وفي الظلام  
المهيب شبه لي أن شخصاً قد وقف بجانب السرير  
مشيراً بأصبعه الغليظة إلى النائمة وبهمسة سألني قائلاً:  
— أوكي؟ أوكي؟ أوكي؟ !

« ففقت مسرعاً وأشملت السراج فإذا الشبكة  
ترفرف في الهواء وإذا القارب تحرك الأمواج  
« وقد جمد الدم في عروقي، وتصيب العرق  
غزيراً عند ما صك مسمي رنين الضحكة : — هاها  
هاها — يتردد صداها بين سجف الظلماء متجولة  
في النهر، بين ضفافه الرملية في الجانب الآخر، ثم  
حائمة على مسدن المقاطمة النائمة وفراها؛ طائفة  
بلا انقطاع على أقطار الأرض جماء؛ ثم طفقت  
تنضاد في الفضاء غير المتناهي حتى تستدق  
تدريجاً فإذا هي ك رأس الابرّة في استدقاقها !

ما كنت سمعت من قبل صوتاً نافذاً خافئاً؛ ولا  
كنت ظننت أن مثل هذا الصوت في الوجود !  
وعلى أنه لو كانت في ججمتي سماء غير متناهية ولا  
محدودة لما استطاع ذلك للصوت — مهما أوغل في  
رحلته — أن يبرح ذهني .. »

قال : « وأخيراً، وحين جاز الأمر حد  
الاحتمال فكرت أني لن أستطيع أن أنام ما لم أظني  
السراج. وما كان أسرعني حين أطلقناه فإذا أنا  
أسمع قريباً من كلني في جوف الظلام ذلك الصوت  
المبحوح قائلاً :

— أوكي؟ أوكي؟ أوكي؟ !

« فطفق قلبي يخفق على وقع هذه الكلمات  
وبدا يستعبد بالتدرج السؤال — أوكي .. أوكي ..  
أوكي؟ — .. وفي هدأة الليل، ومن وسط الغارب  
ابتدأت ساعتى المستديرة تردد السؤال : — أوكي؟  
أوكي؟ أوكي؟ — بفصاحة مشيرة بعقاربها إلى  
« مونوراما » ..

كان وهو يقص على هذا يتمتع لونه امتقاع  
وجوه الأموات ويتضاءل صوته، فقلت له واضحاً  
يدي على منكبيه : « إشرّب قليلاً من الماء » ،  
وخفق لهب المصباح ثم انطفأ، فوصل أذني صوت  
غراب ينطق، وصغير قبرة صفراء، وصلصلة بحلة  
كان يجرها الزيران ...

وكانت أمارات « دوخين بابو » المرتسمة على  
وجهه قد تغيرت فلم يبق في نفسه من آثار الفزع  
شيء، ذلك بأنه قص على ما قص متأثراً بخوف  
خيالي، غدوعاً بسحر الليل، فتظاهرت بتأنيبه  
على ذلك الخوف حتى أريته غضبي عليه، وانطلق  
فوراً وخرج تصحبه السلامة !

فصرى شهاب العبيدي